المشرق

دبرا ليبانوس

او دير قديم في الحبشة العليا

للصيدلي القانوني عبدالله افندي ميخائيل رعد

استأذنتُ الحكومة الحبشيَّة فاذنت لي بعد اللتيا والتي (وبعد استلطاف احد العمّال !...) بالذهاب لزيارة دير دبرا ليبانوس وهو منسك شهير في الحبشة ومن اقدم الاديرة في الشرق يبعد عن اديس ابابا مسافة ثلاث مراحل منها الى جهة الشمال الشرقي وندر مَن زار هذا المكان من الافرنج فضلًا عن السوريين فلذلك خطر لي وانا في تلك الارض ان أُطلع قرّاء المشرق الادباء على احوال هذا الدير التاريخي وهأنذا اليوم اكتب اليهم هذه المجالة وهي نسخة ما علّقتهُ على دفتر مجموعتي من الملحوظات التي عاينتها ضنًّا بها فلست اشاء ان تبقى مدفونة حبرًا على ورق في مجموعتي هذه فاقول :

*

دير دَبْرا ليبانوس — وبالعربيَّة دير جبل لبنان — منسك قديم في الحبشة العليا — يبعد كما اشرتُ ثلاث مراحل شمالًا شرقًا من عاصمة منليك وقد استصحبت في رحلتي هذه خريطة الحبشة وبارومترًا وقبلة تامه وما يلزم من الادوات لمدّ الخطوط على الورق ضبطًا لنقطة المحل جغرافيًّا فوجدت — ما لم يكن هناك غلط في عمليّات حسابي او شطط في المقاييس المذكورة — ان هذا المكان يعلو البحر ٢٧٠٠ متر وموقعهُ في

٩°٢٥ من العرض الشمالي و ٣٧°١١ من الطول الشرقي عن حاجرة باريس مع ضرب الصفح عن الثواني في الحالين لعدم اهميتها. امّا الباعث الذي حدا بالاحباش في سالف الزمان ان يدعوا هذا المكان باسم جبل لبنان فهو اولًا تيمُّنًا باسم ذلك الجبل الذي جاء ذكره في نصوص الكتاب الكريم ثم لوجه الشبه بينه وبين جبل الشام من حيث التكوين الطبيعي والهيئة وبرودة الماء والغابة التي تمتدّ في تلك الجهة اذ معظم اشجارها من نوع يدعى « ذكبا » من الفصيلة الراتينجيّة يشبه كثيرًا شجر الارز المشهور فدعوا المكان باسم جبل لبنان لشهرة الارز في هذا الاخير

لا اطيل الكلام في وصف الطريق بين العاصمة وهذا المنسك بل اكتفي بالتنويه الى انّ المكان قائم على حدود مملكة الشوا وامارة سلالهِ فالمرحلتان الأوليان يجتازهما المسافر في طريق شديدة الوعورة ما خلا بعض السهل ويمرّ في الاولى منهما على مدينة انطرطو العاصمة الحبشية سابقًا وهي على مقربة من اديس ابابا العاصمة الحالية . وفي الثانية يجتاز نهرًا كبيرًا يدعى نهر « دوبر » تجري مياهه في وادٍ عميق فتجتاز مقاطعة الشوا ثم امارة سلالهِ ثم مقاطعة گودجام ثم بلاد وللگا وبني شنكول ذات المعادن الذهبية حتى يصبّ اخيرًا في النيل الازرق. ولا حاجة بي الى القول ان هذا النهر يبدأ صغيرًا ثم تغزر مياههُ رويدًا رويدًا لما يصبُّ فيهِ على طول مجراه من السواعد كعثار الانهار والاعين والسواقي والسيول حتى يصل الى مصبّه في النيل الازرق من جهة مجيرة عباي وقد اصبح نهرًا عظيماً . وهو يحتوي على طول مجراه على انواع التماسيح وافراس الماء. ثم بعد اجتياز هذا النهر يبدأ سهل لا يُرى لهُ اول ولا آخر فيهِ مزارع وحقول ومراعٍ خصبة ومجاري مياه كثيرة العدد وكثيرٌ من القرى المبنية على القمم والروابي حتى ينتهي الطريق الى الدير في آخر هذا السهل

دبرا ليبانوس معتقل منيع كان يلجأ اليهِ الاحباش في الاعصر السالفة عند هجوم الامم عليهم فيكونون في مأمن على حياتهم في عهد لم يكن بعد اختُرع السلاح الناري ولم يعرف الاحباش سوى الرماح والنصيّ والحجارة سلاحًا في حروبهم فكان لهم في ذلك المحل ملاذ لا يستطيع دخولهُ العدو ومعتصم حصين ذو مناظر فريدة في العالم كما سأذكر. واول ما جُعل هناك مقام دينيّ في الجيل الثالث عشر على عهد الاسقف الصالح تقلاهيمانوت (ومعناه غرسة الايمان) الذي كان كاثوليكيًا (راجع المشرق ٦:

١١٩) مبشراً رسولاً غيوراً وهو الذي رمَّم الاديرة التي هدمت في الحروب السالفة عند هجوم البرابرة. فهذا الاسقف الشهير اضطرتهُ يوماً نكبات الحروب الداخلية في الحبشة ان يلجأ الى هذا المعقل وتبعهُ جمٌ غفير من الاكليروس فبنوا هناك كنيسة. ولما توفي هذا الاسقف في بلاد تكرّه بعد هدوء الاضطرابات وعودته الى كرسي رعايته نقل الكهنة رفاته الى دبرا ليبانوس واودعوها الكنيسة التي كان قد بناها هناك بكل عناء. ومزيد اهتمام في ايام المحن والاضطرابات والخوف والجوع والعري وهناك جرت عجيبة على يده فانهُ اذ كان الشعب الكثير ملتجئاً الى ذلك المعقل هرباً من القبائل المعادية نضب ما كان متجمعاً من ماء المطر في ثقوب الصخور وظمئ القوم حتى كاد يموت عطشاً. فجثا الاسقف تقلاهيمانوت وصلّى الى الله وصام وتضرّع فانفجرت في ذلك المحلّ من قلب الصخر بنوع عجيب عين ماء رائق بارد وشرب الشعب وارتوى من ظمإهِ وسبحوا الله

ثم اضحى المكان منذ ذاك العهد مقدساً يحج اليهِ الى يومنا هذا عموم الحبش من كل فجّ وصوب واكرموا هذا الاسقف بعد موته اكراماً حتى انهم عدّوه في مصاف القديسين وهم يعيدون لهُ يوماً في كل سنة وهو الثالث عشر من شهر «طِرْه» — وهو شهر طوبه القبطي — ويوافق العشرين (او ٢١ في بعض السنين) من كانون الثاني على الحساب الغريغوري ولعلهُ تذكار يوم وفاته او يوم نقل جثمانه الى ذلك المحل. فيتقاطر الاحباش في هذا العيد آتين الى الدير من كل انحاء بلادهم حتى من الجهات البعيدة مسافة شهرين بل ثلاثة اشهر ويعملون في دبرا ليبانوس مهرجاناً عظيماً. وقد يذهب ايضاً الملك والامراء في بعض السنين لحضور هذا العيد فيكون المهرجان احفل واعظم. وكذلك اصبح الماء مقدساً يأخذون منهُ الى يومنا هذا حتى الى اقصى الجهات تبركاً وتيمناً وامانةً فيوزعون منهُ في كنائسهم ويسقون منهُ المرضى ويمسحونهم بهِ وكثير منهم يأتون بمرضاهم الى ذلك المكان ليستقوا من الماء ويغتسلوا بهِ طلباً للشفاء من عاهاتهم وعدد منهم يشفون

وقد زاد بعضهم خرافة على ذلك شأن خرافات الشعوب الجهلاء فشوّهوا وجه الامانة بهذه الرواية الغريبة . يقولون ان الله تعالى اذ سمع تضرع الاسقف تقلاهيمانوت ارسل اليهِ ماء هو جزء من نهر الاردن وهذا الجزء يجري بنوع فائق العجب في بطن

الارض وصخور الجبال ومياه البحار حتى يصل الى دبرا ليبانوس فينفجر من قلب الصخر وهي خرافة لا يميزها عِلْية الاحباش اذ انّا صاغية بل هم يقولون انهُ ماء مقدس اذ ان انفجاره جرى بعجيبة على يد رجل قديس اكسبتهُ قوَّة الشفاء وهو لعمري قول حق لا يجلب عليهم هزء العارفين كقول الخرافة المذكورة .

والمقتدرون من الاحباش ينقلون عظام آبائهم ورؤسائهم وامرائهم وذويهم الى تلك الارض لاعتبارهم اياها مقدسةً . وبعضهم اذا شاخ او طالت مدة مرضه ذهب وقضى بقية حياته على مقربة من ذاك الدير حتى اذا مات دُفنت عظامه في بطن ارض مقدسة . فمن ذلك ان عمة جلالة النجاشي الحالي ولها من العمر ما يقارب المائة من السنين قد هجرت البلاط وذهبت الى هناك حيث تعيش في بيت حقير الهيئة قائم على قمة عالية تطلّ على الدير المذكور مسرورةً تقضي بقية حياتها في ارض مقدسة وتُدفن فيها بعد مماتها وقد اعدت لنفسها قبرًا داخل الدير بجانب قبر اخيها الراس دارگه المدفون هناك . امَّا اطلاق اسم دبرا ليبانوس على هذا المكان فاظنهُ اقرب عهدًا من تأسيس الدير الوما اليهِ ولعلهُ لا يتجاوز مائة سنة

ينتهي بالزائر طريق المرحلة الثالثة المتدَّة في سهل فسيح كما اشرنا فيرى عن بُعد طودًا شامخًا يتطح بقمته القبَّة الزرقاء منتصبًا امامه كالسور المنيع او كالقلعة الحصينة حتى اذا ما قاربت الطريق النهاية ترجَّل عن دابته ودخل حالوصًا (اي سردابًا مكشوفًا) منقورًا وسط الصخور متحدرًا حتى يكاد يهوي الداخل فيهِ لقوة تحدّره وتزلق رجله لملاسة ارضه . ثم يعبر من هناك الى مكان آخر منبسط الارض كثير الصخور والاشجار بهِ عددٌ من البيوت المعرَّشة والمضارب هي مساكن الزوَّار فيضرب هو ايضًا في ذلك المحل سرادقه وبعد ان يكون اخذ قسطًا من الراحة واكل شيئًا من الزاد ينهض لزيارة الدير

لا يقطع الزائر عن مضربه خطوات قليلة حتى يقف مندهشًا مذهولًا لما يتجلَّى امامه من هول ذاك المنظر المخيف . يقوم على حافة صخرة ضخمة فيكشف الوادي الذي تحته حيث المنسك والكنيسة وقبور ذات ابنية عالية هي مدافن الملوك والامراء الاحباش . يرى عن يمينه النهر يسقط باجمعه الى ذلك الوادي شلَّالًا يتجاوز علو انحداره ثلاثمائة متر فيهبط في بركة تكوَّنت هناك بفعل شدة هبوط الشلال مع مرور

الزمان فتزيد مياههُ وترغي ثم تسير سيرًا سريعًا على عرض الوادي حتى تهبط ايضاً من جهته الأُخرى شلالًا ثانيًا على وادٍ آخر اكثر عمقًا من الاول حيث يجري نهر كبير يحدّ المنسك من تلك الناحية وبعد الوادي ينتصب ذلك الطود الشامخ الذي شاهدناه عن بعيد قبل وصولنا الى الدير . فيا لهُ من منظر مخيف ويا لهُ من معقل طبيعي حصين ندر وجود معقل آخر يماثلهُ بالمناعة . يقف الزائر هنيهة متأملًا في تلك البقعة العجيبة مُطرقًا بنظره الى اسفل الوادي فتصفر الارض في عينيه وتتراءى لهُ اشعة الشمس كانها دخان متصاعد . يرى الجبال تحدق بالمنسك إحداق الهالة بالقمر او السوار بالمعصم مستقيمة الصخور كانها قُدّت بالمقطع بل كانها نُشرت بالمنشار فيتساءل كيف السبيل الى ولوج هذا الحصن وباية طريق يستطيع الانحدار

قادني رفقتي الى جهة الشرق وانحدر نصفهم امامي في سلّم ضيق نحته مرور الارجل في كرور السنين وهو ينطلق من صخرة الى صخرة فوقفتُ متمثلًا مستشيرًا نفسي في هل اتجرأ على اتباعهم خوفًا من ان تزلق بي القدم فاهبط في تلك الهاوية العميقة . وكان من تقدمني من رجالي يتزلون ببعض السرعة كانهم الطراند ثم يلتفتون الخطوة بعد الخطوة اليَّ ويصرخون ان « هلمَّ ولا تجزع » وكذلك فعل من تخلّف منهم معي واشاروا عليَّ ان اقلع احذيتي من رجلي خوفًا عليَّ ان تزلق بي القدم ففعلت كما قالوا فكنى ابقيت الجوارب زيادةً في الحرص ولعدم استطاعتي ان اسير نظيرهم حافي الرجلين ثم تبعت من تقدّمني وتبعني الذين تخلفوا معي فكنت تارةً اتشبث بجذوع الاشجار الممتدة بين الصخور واخرى برؤوس تلك الصفا رطورًا اجلس واتقدّم زاحفًا وجماعتي تنشطني وتمسك يدي حتى انتهينا بالسلامة الى قعر الوادي حيث المنسك

(ستأتي البقية)